إضاءات نقدية (مقالة محكمة)
السنة الرابعة عشرة ـ العدد السادس والخمسون ـ شتاء ١٤٠٣ش/كانون الأول ٢٠٢٤م

صص ٦٤ ـ ٣٩

العلاقة بين مقاومة شخصية "أبو عبد" فى قصة "القميص المسروق" لغسّان كنفانى ومحاور نظرية تدرج الحاجات لإبراهام ماسلو

علىأكبر نورسيده (الكاتب المسؤول)*
مديحة كريمى**

الملخص

يصوِّر أدب المقاومة معاناة الإنسان فى مواجهة الظروف القاسية المفروضة، وذلک عبر الكشف عن الضغوط الاجتماعية والسياسية. وقد أفضى هذا التوجه إلى تسليط الضوء على الروابط بين الأدب وعلم الاجتماع وعلم النفس، وإلى نشأة النقد السيكولوجى. فى هذا السياق، قدَّم أبراهام ماسلو نظريته المعروفة بتدرج الحاجات، التى تُبين كيفية تأثير الحاجات الإنسانية على أفعال الفرد وعلاقاته. تهدف هذه الدراسة، المعتمدة على المنهج الوصفى التحليلى، إلى بحث ثبات أو تغير النمط المقاوم لشخصية أبى عبد فى قصة "القميص المسروق" للكاتب الفلسطينى غسّان كنفانى، وتحديد الكيفية التى أثّرت بها مقاومة أبى عبد، فى ضوء تدرج ماسلو للحاجات، على سلوكياته وعلاقاته وقراراته. خلصت نتائج البحث إلى أن مقاومة أبى عبد كانت فى البداية سلبية وداخلية، لكن تفجُّر رغبته فى تحقيق العدالة حوّلها إلى مقاومة عدوانية. علاوة على ذلک، أدت مقاومته فى مواجهة إحباط حاجاته الأساسية إلى تفعيل آليات دفاعية لديه مثل التجنب والكبت والإزاحة. ومع ذلک، فإن هاجس المعيشة منعه من مقاومة برود علاقاته، لكن على مستوى اتخاذ القرارات، فإن مقاومته قد حالت دون انصياعه لإغراءات الذات وقيامه بالسرقة.

الكلمات الدليليّة: أدب المقاومة، غسّان كنفانى، القميص المسروق، أبراهام ماسلو، نظرية تدرج الحاجات.

*. أستاذ مشارک فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة سمنان، سمنان، إيران
noresideh@semnan.ac.ir
**. طالبة الدكتوراه فى قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة سمنان، سمنان، إيران
تاريخ الاستلام: ١٤٤٧/٠١/٢٥ق تاريخ القبول: ١٤٤٧/٠٤/١٩ق

المقدّمة

يحرص الأدباء، لا سيما فى مجال أدب المقاومة[1]، على تجسيد القضايا الإنسانية ضمن إطار جماليات الأدب فى صلب أعمالهم، بهدف التعبير عن القيود المكبلة والحيرة الناجمة عن الأوضاع السياسية والاجتماعية الصعبة والكشف عنها. فالهدف من هذا النوع الأدبى هو تصوير آلام وصراعات البشر الذين وقعوا فريسة لظروف سياسية قاهرة. (الجيوسى، ١٩٩٧م: ٩٦) يسهم هذا النطاق، من خلال تمثيلاته العميقة للأزمات الروحية، فى إثراء النص الأدبى وتعميقه، ويمهد الطريق للكشف عن العلاقة الجوهرية بين علم النفس وعلم الاجتماع والأدب. وبهذه الوسيلة، وبفضل جهود منظّرى القرن العشرين، أمثال سيغموند فرويد[2]، ظهر منهج "النقد النفسى". كان فرويد أول منظّر طبّق مفاهيم ونظريات التحليل النفسى على تحليل النصوص الأدبية، وفتح آفاقاً جديدة للقراءات الأدبية من خلال تحليل الأطر السردية.

إلا أنه إلى جانب المناهج النفسية التى ركزت بشكل أساسى على دراسة التحديات النفسية وعلم الأمراض الشخصية، تيار آخر، ركز اهتمامه على أسباب نجاح الأفراد. ومن أبرز ممثلى هذا التيار، يذكر عالم النفس الإنسانى الأمريكى أبراهام هارولد ماسلو[3]. اشتهر ماسلو عالمياً بنظريته المعروفة بـ "هرم ماسلو للحاجات الإنسانية[4]". فى الواقع، عارض ماسلو السلوكية والتحليل النفسى الفرويدى، إذ اعتقد أن «حصر علم النفس فى البحث فى الأمراض العصابية والذهنية سيؤدى إلى إعاقة علم النفس ودفعه نحو الهاوية.» (شولتز، ١٩٩٠م ب: ٣٤٢) يكشف هذا المنهج، ولاسيما فى سياق أدب المقاومة، كيف تؤثر المستويات المختلفة للحاجات الإنسانية والضغوط الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عنها على أفعال الفرد وعلاقاته، وتؤدى إلى انهيار الشخصيات فى حال الحرمان. لذا، يسهم تحليل الأعمال الأدبية فى ضوء هذه النظريات فى تسهيل فهم نسيج الشخصيات ودوافعها الكامنة من خلال كشف جوانبها الذهنية والنفسية،

1. Resistance literature
2. Sigmund Freud
3. Abraham Harold Maslow
4. Hierarshy of Human Needs

وبالتالى تحقيق فهم عميق للأفراد فى هذا العالم المتغير.

بناءً عليه، تسعى الدراسة الحالية إلى تطبيق هذه النظرية على عمل أدبى فى مجال أدب المقاومة. ونظراً للطابع العالمى للقضية الفلسطينية كرمز للمقاومة ضد الظلم والاستكبار، تم اختيار قصة "القميص المسروق" – وهى أولى قصص المجموعة القصصية "القميص المسروق" – للكاتب والصحفى الفلسطينى غسّان كنفانى، الذى ترعرع منذ البداية فى مدرسة المقاومة، لتكون محور هذا البحث. ركز كنفانى فى كتاباته على فلسطين والمشكلات الناجمة عن الحرب واحتلال هذا البلد. ويعد فى الأدب الفلسطينى المعاصر «أول كاتب استخدم مصطلح المقاومة فى الأدب لأول مرة، وأطلق اسم "أدب المقاومة الفلسطينى" على مجموعة من قصائد وقصص شعراء وكتاب فلسطينيين.» (ترابى، ٢٠١١م: ١٥٠) لذا، فإن دراسة مثل هذه الأعمال، التى نشأ كاتبها فى بيئة مليئة بالتحديات والمشكلات الناجمة عن الأجواء المتوترة فى فلسطين، وربما يكون قد ذاق مرارة إخفاق حاجات كل مستوى من مستويات هرم ماسلو، يمكن أن تقدم صورة أوضح للمقاومة فى مواجهة الحاجات الإنسانية غير الملباة والحالات النفسية والصراعات الفردية والاجتماعية الناجمة عنها. وفى هذا السياق، تظهر قصة "القميص المسروق" توافقاً أكبر مع نظرية أبراهام ماسلو مقارنة بأعماله الأخرى، وذلك بسبب انعكاس حاجات الهرم المذكور فيها، مما أدّى إلى اختيار هذه القصة.

أسئلة البحث

تسعى الدراسة الحالية للإجابة عن الأسئلة الآتية:

١. كيف يقيم ثبات أو تغير نمط المقاومة لدى شخصية "أبو عبد" فى قصة "القميص المسروق"؟
٢. كيف أثرت مقاومة شخصية "أبو عبد"، فى ضوء هرم ماسلو للحاجات، على سلوكه وعلاقاته وقراراته؟

فى هذا الصدد، تسعى الدراسة الراهنة، باستخدام المنهج الوصفى التحليلى، وبالاعتماد على مراجعة الكتب والبحوث المتعددة التى أُجريت حتى الآن فى هذا المجال، إلى تقديم إجابات شافية لأسئلتها.

الدراسات السابقة

فى مجال أدب المقاومة، أُجريت دراسات حول قصة "القميص المسروق" ونظرية أبراهام ماسلو لتسلسل الحاجات. فيما يلى أقرب الدراسات إلى البحث الحالى:

أدب المقاومة فى أعمال غسّان كنفانى

مقالة بعنوان «المبادئ النظرية لأدب المقاومة فى أعمال غسّان كنفانى» بقلم محمد صادق بصيرى ونسرين فلاح، نُشرت عام ٢٠١٤م فى مجلة أدب المقاومة. تشير النتائج إلى أن الكاتب، بناءً على آلام طفولته فى الشتات، يعكس حزن وظلم الشعب الفلسطينى ويعتبر المقاومة السبيل الوحيد لتحرير فلسطين.

مقالة بعنوان «تحليل مكونات أدب المقاومة فى رواية "رجال فى الشمس" لغسّان كنفانى» بقلم نعيم عمورى وسيد حسن نجاتى، نُشرت عام ٢٠١٩م فى مجلة البحث فى تعليم اللغة العربية وآدابها. تُظهر النتائج أن كنفانى يعتبر إسرائيل السبب الرئيسى لمشاكل فلسطين؛ لكنه يعتقد أن صمت الشعب الفلسطينى وعدم اعتراضه على معاناته يمنعهم من الانتصار على العدو، ولذلك، فإنه يحث الناس بكتاباته على التفكير والنهوض لتحرير أنفسهم.

رسالة ماجستير بعنوان «مظاهر أدب المقاومة فى المجموعة القصصية القصيرة "عن الرجال والبنادق" للكاتب غسّان كنفانى» بقلم هنا خضيرى نيسى، نوقشت عام ٢٠٢٣م تحت إشراف نعيم عمورى فى جامعة شهيد تشمران الأهواز. تشير نتائج البحث إلى أن الكاتب أكد على حب الوطن، ومحاربة الظلم، والتضامن، ومعرفة العدو، والشوق إلى الشهادة، واليقظة فى مواجهة التهديد الصهيونى والإنجليزى.

المجموعة القصصية "القميص المسروق"

مقالة بعنوان «سيميائية اجتماعية للقصة القصيرة "القميص المسروق" لكنفانى

بالاعتماد علـــى التراكيب الخطابية لهاليداى[1]» بقلم تـــورج زينى وند وسمية صولتى، نُشرت عام ٢٠١٧م فى مجلة اللغة العربية وآدابها. تُظهر النتائج أنه على مستوى الفكرة، يوجد فى بداية القصة خطاب يدفع بالشخص الفلسطينى نحو الهامش ويواجهه بمشاعر تســـبب له الميل إلى الخيانة، لكن إدراك الحقيقة يمنعه من الخضوع لهذه الخيانة ويدفعه للانتقام من العدو. على المســـتوى التفاعلى، تصور علاقات شخصيات القصة الانتقال من الشك إلى اليقين فى ســـياق الخيانة. على مستوى النص، أسهم التكرار والإحالة فى زيادة تماسك النص.

رسالة ماجستير بعنوان «ترجمة وشـــرح رواية "القميص المسروق" من العربية إلى الفارســـية للكاتب غسّان كنفانى» بقلم ميلاد حسّـــاويان، نوقشت عام ٢٠٢٢م تحت إشـــراف على أكبر ملائى فى جامعة ولى عصر رفســـنجان. تُظهر النتائج أن الكاتب اســـتخدم فى قصصه شخصيات عربية قريبة وملموسة من شوارع فلسطين، حيث صور الشعب الفلسطينى فرداً فرداً وأظهر معاناتهم بشكل كامل.

نظرية أبراهام ماسلو

مقالة بعنوان «تحليل الشخصية الرئيسية فى رواية "أيام معه" بناءً على نظرية أبراهام ماسلو لتحقيق الذات» بقلم بيمان صالحى وكلثوم باقرى، نُشرت عام ٢٠٢٢م فى مجلة الأدب العربـــى. تُظهر النتائج أن وجود العادات والتقاليد الخاطئة فى هذه القصة حرم النســـاء والفتيات من تحقيق الذات وتطوير إمكاناتهن. تحتاج الشخصية الرئيسية فى هذه القصة فقط إلى داعم لإزالة العقبات من أجل تحقيق الذات.

مقالة بعنوان «دراسة الشخصية الرئيسية فى رواية "اختفاء السيد لا أحد" بناءً على نظرية أبراهام ماســـلو» بقلم عباس قنجعلى، فائزة إيزى وسيد مهدى نورى كيذقانى، كُشفت عام ٢٠٢٤م فى مجلة نقد الأدب المعاصر الأدبى. تُظهر الدراسات أن الشخصية الرئيســـية تصل إلى تحقيق الذات من خلال امتلاك "قيم الكينونة" والتحرك فى مسار ما بعد الحاجات.

1. Michael Halliday

مقالة بعنوان «توصيف الشخصيات فى رواية "ملک الهند" لجبور الدويهى استناداً إلى نظرية أبراهام ماســـلو» بقلم مجيد صالح بک وهايده عجرش، كُشفت عام ٢٠٢٥م فى مجلة دراســـات الأدب القصصى. معظم شـــخصيات الرواية منغمسة فى الحاجات الأساسية ولا تصل إلى تحقيق الذات؛ ولكن فى شخصية زكريا، يمكن ملاحظة مكونات تحقيق الذات فى نهاية المطاف بسبب صراعاته الداخلية.

من خلال الدراســـات المذكورة، يتضح أنه لم يتـــم حتى الآن تناول قصة "القميص المسروق" بالتركيز على النظريات النفسية، بما فى ذلک نظرية أبراهام ماسلو.

الأسس النظرية

أبراهام ماسلو وتفسير نظرية تدرج الحاجات

وُلد أبراهام هارولد ماسلو عام ١٩٠٨م فى حى بروكلين بولاية نيويورک الأمريكية. منذ ســـنوات طفولته الأولى، اتجه إلى الدراسة والقراءة، وفى السابعة عشرة من عمره التحق بالكلية. فى العشـــرين من عمره، غير حدثان حياته بشـــكل ملحوظ: الزواج والتعرف على علم النفس الســـلوكى[1]. درس وبحث فى الســـلوكية لعدة سنوات، لكن ولادة طفلـــه غيرت وجهة نظره تجاه الســـلوكية. فى رأيه، لا يمكـــن لمن يصبح أباً أن يظل ســـلوكياً. قدم ماسلو الإنسانية[2] كموجة ثالثة فى علم النفس بعد التحليل النفسى والســـلوكية. فى الواقع، كان الهدف الأساسى لماسلو هو فهم مدى قدرة الإنسان على التطور والازدهار. ويعتقد أن هناک ميلاً فطرياً لدى البشـــر لتحقيق أقصى إمكاناتهم. (شولتز، ٢٠٠٦م: ٨٧-٩١)

فى عام ١٩٤٣م، قدم ماسلو نظرية تحفيزية، مستعيراً مفهوم تحقيق الذات من أعمال كورت غولدشـــتاين[3] ومكملاً آراء السابقين، بنيت على مجموعة من الحاجات الفطرية والمتدرجة، ويؤدى تلبية هذه الحاجات إلى الشعور بالرضا عن الحياة. (راس، ٢٠٠٣م: ١٣٢) وفقاً لهذه النظرية، يتمتع جميع الأفراد بدافع لتحقيق الذات، وإذا تم تلبية حاجاتهم

1. Behavioral Psychology
2. Humanism
3. Kurt Goldstein

المرحلية، وبمساعدة الذكاء والإرادة، بالإضافة إلى التحكم فى العوامل البيئية المسببة للتوتر والتحدى التى تؤدى إلى إضعاف الروح المعنوية، يمكنهم تحقيق الذات من خلال تطوير المواهب التى تمهد الطريق للوصول إلى الكمال. (فرانک، ١٩٩١م: ٢٢٣)

يرى ماسلو أن تحقيق الذات صفة عامة جداً، ويمكن أن تتجلى فى أى نوع تقريباً من السلوک. «ليس الرسام أو الموسيقى أو الكاتب أو الممثل وحده من يحقق ذاته، بل كل شخص فى أى مكان، فى عملية أن يصبح أكثر انسجاماً وتكاملاً واكتمالاً كشخص، هو فى الواقع على طريق تحقيق الذات.» (كارفر وشير، ٢٠٠٨م: ٥١٨) بالإضافة إلى إيمانه بتأثير البيئة كعنصر أساسى فى ازدهار المواهب الفردية، يعتقد ماسلو، خلافاً لفرويد، أن الإنسان ليس لديه فطرة شريرة. بحيث أنه إذا توفرت بيئة لتلبية حاجاته، فمن الممكن أن يصل إلى الكمال الإنسانى. فى رأيه، ما يوجه سلوک الإنسان هو تدرج حاجاته. (ماسلو، ١٩٨٨م: ١٣٨)

على الرغم من أن هذا التدرج غالباً ما يمثل على شكل هرم، إلا أن ماسلو نفسه لم يرسم هرماً ولم يدعمه. بعد حوالى عشرين عاماً من طرح ماسلو لهذا التدرج، قام عالم نفس استشارى بتصويره لأول مرة فى مجلة تجارية. الحاجات الخمسة التى تشكل هذا التدرج هى حاجات إرادية؛ أى أنها ذات طبيعة جهدية وتحفيزية. (فيست وآخرون، ٢٠٢٢م: ٣٨٩)

هذه الحاجات من أدنى مستوى إلى أعلاها هى كالتالى: أولاً: الحاجات البيولوجية أو الفسيولوجية[1]: هذه الحاجات ضرورية لبقاء الإنسان واستمرار حياته، مثل الغذاء والملبس والمأوى. ثانياً: الحاجات الأمنية[2]: أى عدم تهديد صحة الإنسان وممتلكاته وحياته من قبل العوامل البيئية. ثالثاً: الحاجة إلى الحب والانتماء[3]: الحاجة إلى إقامة علاقات عاطفية وحب متبادل مع الآخرين. رابعاً: الحاجات المتعلقة بتقدير الذات[4]: إدراک الفرد لقيمته الوجودية واعتقاده بأنه يحظى بالاحترام من قبل الآخرين. إذا لم

1. Physiological needs
2. Safety needs
3. Belonging and love needs
4. Self-esteem needs

يحقق الأفراد الاحترام اللازم لهم باستخدام أساليب بناءة، فمن الممكن أن يلجأوا إلى سلوكيات غير سوية للوصول إليه. خامساً: الحاجة إلى تحقيق الذات[1]: أى يجب توفير بيئة لتطوير المواهب الكامنة. من المسلم به أن تحقيق الحاجات التى تقع فى قمة الهرم يستلزم تحقيق حاجات المستويات الأدنى. (ماسلو، ١٩٨٨م: ١٣٨)

الصورة (١). هرم ماسلو للحاجات (سيد عبد الرحمن، ١٩٩٨م: ٤٣٦)

بالإضافة إلى هذه الحاجات الأساسية الخمس، حدد ماسلو ثلاث فئات أخرى من الحاجات:

الحاجات الجمالية[2]: بخلاف الحاجات الأساسية التى تتسم بالعمومية، فإن هذه الحاجات ليست شاملة؛ ولكنها تحرك بعض الأفراد على الأقل فى كل ثقافة نحو الحاجة إلى الجمال والتجارب الفنية الممتعة. الحاجات المعرفية[3]: يميل معظم الناس إلى المعرفة، وحل الألغاز، والفهم، والفضول. أطلق ماسلو على هذه الميول اسم الحاجات المعرفية. الحاجات العصابية[4]: هذه الحاجات غير صحية وغير مجدية. إنها تديم أنماط

1. Self-actualization needs
2. Aesthetic Needs
3. Cognitive Needs
4. Neurotic Needs

الحياة غير الصحية ولا تساهم فى تحقيق الذات بأى شكل من الأشكال. عادةً ما تكون الحاجات العصابية تفاعلية، وبعبارة أخرى، تنشـأ لتعويض الحاجات الأساسية غير الملباة. (فيست وفيست، ٢٠٠٥م: ٥٩٧-٥٩٦)

الأدب المقاومة فى فلسطين

تَشكّل الأدب المقاومة الفلسـطينية فى خضم الفوضى والاضطرابات التى أعقبت احتلال الأراضى الفلسـطينية مـن قبل الصهاينة عـام ١٩٤٨م، وما تلاه من تهجير الفلسطينيين. ومنذ البداية، أثرى الشـعراء والكتاب الفلسطينيون هذا الأدب وأغنوه يوماً بعد يوم، من خلال إبداعاتهم الشعرية والقصصية والمقالات النقدية والاجتماعية التى نشرت فى الدوريات.

يعود مصطلح "أدب المقاومة" بجذوره إلى نضالات الشعب الفلسطينى. وكان غسّان كنفانى (١٩٣٦-١٩٧٢م)، الكاتب والصحفى والمناضل الفلسطينى الشهيد، وأحد قادة الجبهة الشـعبية لتحرير فلسطين، أول من اسـتخدم هذا المصطلح. ففى عام ١٩٦٦م، جمع كنفانى مجموعة من قصائد الشـعراء الفلسـطينيين فى كتاب أسماه "أدب المقاومة فى فلسـطين". وفى المقدمة المطولـة لهذا الكتاب، تناول كنفانى النشـاطات الأدبية للفلسطينيين المهجرين والمنفيين، وقدم أدب المقاومة الفلسطينى إلى العالم. وهكذا، فتح مصطلحا "المقاومة" و"أدب المقاومة" طريقهما إلى اللغات والثقافات الأخرى، وانتشرا كتسمية لنوع خاص من الأدب. (ترابى، ٢٠١١م: ٢٥٠)

ملخّص قصة "القميص المسروق"

هـذه القصة هى الأولى من كتاب "القميص المسـروق" لغسّـان كنفانى (١٩٣٦-١٩٧٢م)، والذى يضم ثمانى قصص قصيرة. تصور القصة حياة عائلة فلسـطينية مكونة من ثلاثة أفراد، حيث أدت إقامتهم فى خيام مخيمات اللاجئين الفلسـطينيين إلى بروز تحديات فى حياتهم. يتعرض ربّ الأسـرة، أبو عبد، لوم زوجته المستمر بسبب البطالة وعجزه عن تأمين الحاجات الأساسـية كالطعام؛ لذا تدفعه هذه الصعوبات إلى التفكير فى السـرقة، ويحرضه أبو سمير – أحد سكان المخيم – على ذلك. لكن بعد أن يكتشف

سـبب تأخر توزيع الطحين على العائلات، والذى كان ناتجاً عن صفقات أبى سمير مع الضابط الأمريكى، يتجنب السرقة ويقتل أبا سمير.

بحث ودراسة

الحاجات الفسيولوجية

تُمثّل الحاجات الفسـيولوجية، كما أسّسها أبراهام ماسلو، الركيزة الجوهرية لوجود الإنسان ككائن مُعقّد. يشدّد ماسلو على أن «إشباعها أكثر ضرورة بكثير من حاجات المستويات العليا. فالشخص الذى يفتقر إلى الطعام والأمن والحب والاحترام، يتملّكه شـغف أكبر تجاه الطعام.» (ماسـلو، ١٩٩٣م ب: ٧١) وتتضمن هذه الحاجات: الهواء، الغذاء، الماء، المأوى، الدوافع الجنسية، والنوم.

الغذاء

غالباً ما يهيمن توفير الغذاء على سـائر الحاجات الفسيولوجية، لدرجة أن ماسلو يرى أن «الأشـخاص الذين يعانون من الجوع المستمر، دافعهم الوحيد هو الأكل. لا شىء يهمهم سواه، وما دام هذا الاحتياج غير مُلبّى، سيظل دافعهم الأساسى هو البحث عن قوتهم.» (فيسـت وآخرون، ٢٠٢٢م: ٣٨٩) فى قصة "القميص المسـروق"، يشكّل توفير الغذاء محور الحاجات الأساسية لأبى العبد.

«وَلَكِنّهُ يخَافُ أَنْ يدْخُلَ هَذِهِ الْخَيمَةَ، إِنّ فِى مُحَاجِرِ زَوْجِهِ سُؤَالاً رّهِيباً مّا زَالَ يقْرَعُ فِيهِمَا مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ، لَا، إِنّ الْبَرْدَ أَقَلُّ قَسْوَةً مّنَ السُّؤَالِ الرّهِيبِ. سَتَقُولُ لَهُ إِذَا مَا دَخَلَ وَهِى تَغْرِسُ كَفّيهَا فِى الْعَجِينِ، وَتَغْرِسُ عَينَيهَا فِى عُيونِهِ: هَلْ وَجَدْتَ عَمَلاً؟ مَاذَا سَنَأْكُلُ إِذَنْ؟....وَنَصَـبَ قَامَتَهُ بِهُدُوءٍ لّاهِثٍ، ثُمّ مَا لَبِثَ أَنْ عَادَ، فَاتّكَأَ عَلَى الرّفْشِ الْمَكْسُـورِ، وَأَنْشَأَ يحَدّقُ بِالْخَيمَةِ الدّاكِنَةِ مُسْتَشْعِراً قَلَقاً عَظِيماً.» (كنفانى، ٢٠١٣م: ٨)

تُنهك زوجة أبى العبد زوجها باستمرار بأسئلتها المتكررة وتوبيخاتها، نتيجة عجزه عن تلبية الحاجات الأولية كالغذاء. تُشـكل هذه التوبيخات هجوماً مباشراً على هوية أبـى العبد الرجولية، ما يحطّم معنوياته ويدفعه إلى تفضيل قسـوة البرد خارج الخيمة على الدفء الداخلى المصحوب بتوبيخات زوجته. فى هذا الموقف، ينتابه قلق شـديد،

فيلجأ إلى آلية الدفاع بالتجنب[1] لمقاومة هذا القلق. تُعرّف هذه العملية بأنها تجنب الفرد للأعمال والمواقف غير المريحة للابتعاد عن الانزعاج. (فرويد، ٢٠١٨م: ١٢٦) ويبدو أن سلوك أبى العبد هذا، المتمثل فى عدم دخول الخيمة ومواجهة أسئلة زوجته، يمثل مقاومة سلبية ومحاولة لحماية ذاته من المشاعر السلبية والقلق الناجم عن هذا التفاعل. بالإضافة إلى ذلک، وبما أن «الضغوط الناتجة عن القلق يمكن أن تكون محفزاً لتفعيل آلية الدفاع الكبت[2]؛ وهذا يعنى أن التجارب غير السارة والمثيرة للقلق تُدفع إلى اللاوعى لحماية الفرد من المعاناة الناجمة عن ذلک القلق.» (فيست وفيست، ٢٠٠٥م: ٣٨)، يمكن القول إن نفس أبى العبد تلجأ إلى آلية الدفاع الكبت، وهى شكل من أشكال الثبات الداخلى، فى محاولة لطرد وقمع الأفكار السلبية الناجمة عن عجزه عن توفير مستلزمات الأسرة وتوبيخات زوجته المتواصلة، بعيداً عن وعيه.

يرى ماسلو أن «الأفراد الجائعين ينصب كل اهتمامهم وفكرهم على الطعام، ويتخذون أى إجراء لتوفيره.» (فيست وآخرون، ٢٠٢٢م: ٣٩٨) تدفع الضغوط النفسية الناتجة عن انعدام الغذاء أبا العبد إلى التفكير فى أفعال غير أخلاقية: «هُوَ يسْأَلُ نَفْسَهُ: وَمَاذَا لَوْ سَرَقْتُ؟.» (كنفانى، ٢٠١٣م: ٨) يتضح أن مسألة الطعام تُسهم فى توجيه أفكاره نحو السرقة والصراع بين "الهى[3] والأنا[4]"[5] لديه. فالهى يسعى إلى اللذة وغير عقلانى، وهدفه تحقيق اللذة دون اعتبار للصواب أو الخطأ. أما الأنا، فهى المجال الوحيد فى العقل الذى يتصل بالواقع وتسعى إلى إحلال الواقع محل لذة الهى. (السيد عبد الرحمن، ١٩٩٨م: ٤٧-٥٠) إن سؤال أبى العبد لنفسه: ماذا لو سرقت؟ يدل على ذروة الصراع بين الهى والأنا. فى الواقع، يسعى الهى إلى الإشباع الفورى للحاجة، دون اكتراث بالعواقب أو الاعتبارات الأخلاقية، ومن هنا يطرح إغراء السرقة كحل ممكن

1. Avoidance Defense Mechanism
2. Repression Defense Mechanism
3. Id
4. Ego

٥. خلال عشرينيات القرن الماضى، قسّم سيغموند فرويد بنية العقل إلى ثلاثة مجالات وظيفية: الهى، والأنا، والأنا العليا. هذه المجالات الوظيفية هى مجرد تراكيب افتراضية ليس لها وجود مكانى. (فيست وفيست، ٢٠٠٥م: ٤٠)

وسريع. لكن الأنا، بتقييمها للواقع والنتائج المحتملة لهذا الفعل، تتدخل وتحاول مقاومة دافـــع الهى بتقديم حل منطقى ومقبول. ويمكن اعتبار هذه المقاومة صراعًا للحفاظ على الكرامة الإنسانية والأطر الأخلاقية فى ظل ظروف متدهورة.

يعتقد ماســـلو أن «الانشغال الوحيد للشـــخص الذى عانى من الجوع لفترة طويلة هـــو الطعام. فى مثل هذه الحالة، يرى الفـــرد الطعام فقط فى يقظته ومنامه، ولا يدرك سواه، وكل فكره وهمه هو الطعام.» (ماسلو، ١٩٩٣م ب: ٧٢) لقد استحوذ توفير الطعام على ذهن أبى العبد لدرجة أدت إلى حدوث زلة لســـان[1]: «مَـــاذَا تَعْمَلُ يا أَبَا الْعَبْدِ؟ إِنّـــى أَحْفِرُ طحِيناً، تَحْفِرُ مَاذَا؟ أَحْفِرُ... أَحْفِرُ خَنْدَقاً.» (كنفانى، ٢٠١٣م: ٩) تتجلى هذه الزلة اللســـانية أثناء محادثته مع أبى سمير، فلحظة الإجابة على سؤاله "ماذا تفعل يا أبا العبد؟"، يؤدى اختيار الكلمة الخاطئة "طحيناً" بدلاً من "خندقاً" إلى كشف أفكاره. وبما أن «العديد من الزلات اللسانية التى تحدث يومياً ليست عرضية، بل تشير إلى أهداف الفرد اللاواعية.» (فيست وفيســـت، ٢٠٠٥م: ٧١)، يمكن القول إن زلة لسان أبى العبد هذه هى صرخة لاواعية من أفكاره ورغباته العميقة المكبوتة، وتعبير عن الضغط العميق واللاواعى للحاجة إلى توفير الغذاء على ذهنه، مما أدى فى النهاية إلى إبدال الكلمات.

حاجات الأمان

تُشكل المكونات المندرجة ضمن الحاجات الأمنية ركيزة أساسية للارتقاء بالإنسان. ففى هذه المرحلة، يســـعى الفرد إلى تحقيق «الأمن، الاستقرار، الانتماء، الدعم، العمل، تكوين الأسرة، امتلاك الممتلكات، الحفاظ على الصحة والسلامة الجسدية، وغيرها.» (ماسلو، ١٩٩٣م الف: ٧٤) ووفقاً لهرم ماســـلو فإن تلبية حاجات المستويات الأولى تُفضى إلى ظهور حاجات المســـتويات اللاحقة. فعند إشباع حاجات المستوى الثانى، تبرز حاجات المســـتوى الثالث، وهكذا. (ماسلو، ١٩٨٨م: ٩) وبالتالى، فإن أى قصور فى تحقيق هذه المكونات يضع المراحل المتبقية أمام تحديات جســـيمة، ويمثل أى سعى لتحقيق هذه العوامل أو الحفاظ عليها مقاومةً ضد الانهيار.

1. Slip of the Tongue

الأمن

تلعب الظروف البيئية والعوامـــل الاجتماعية دوراً حاسماً فى توفير الأمن، وذلک للحماية من الأضرار الجسدية والنفسية والاقتصادية. يؤكد ماسلو أنه «عندما تتعرض النظم والقوانين وســـلطة المجتمع للتهديد، يمكـــن أن تتحول حاجات الأمن إلى أولوية ملحة.» (ماســـلو، ١٩٩٣م ب: ٧٨) تقدم قصة أبى العبد مثالاً واضحاً على هذه الحالة. يتضح من سرد الرواية أن هذه الحاجة تتسم بالإلحاح، إذ يغيب أى أثر للأمن فى حياة أبـــى العبد نتيجة لغياب النظام والقانون الداعمين للناس. إن الحياة فى خيام اللاجئين الفلســـطينيين هى ثمرة عجز المنظمات الاجتماعية والسلطة عن اتخاذ التدابير الأمنية والوقوف فى وجه عدوان العدو. وفـــى ظل هذه الظروف التى يخيم فيها انعدام الأمن على المجتمع، مـــن المؤكد أن الجهود الفردية، إن وُجدت، لن تكون كافية لتوفير الأمن على المستوى العام.

تُســـبب الحياة فى مخيمات اللاجئين توترات عديـــدة، حصيلتها ضياع الأمن. ففى مثل هذه الظروف، يواجه الإنســـان، بالإضافة إلى احتمالية التعرض للمخاطر البيئية، صراعات داخلية أيضاً، لأن غياب فرص العمـــل ومحدودية الموارد، إلى جانب خلق منافســـات غير صحية، قد يؤدى إلى انعدام الأمن الغذائى والنفسى وغيرهما. ويشير ذلک إلى أن الهياكل المعيبة تُعيق الاســـتقرار الفردى والاجتماعى وتُساهم فى تفاقم التوترات.

«اِسْمَـــعْ، إِنّ مَا عَلَينَا هُوَ أَنْ نُخْرِجَ أَكْيَاسَ الطّحِينِ مِنَ المَخْـــزَنِ وَنَذْهَبَ بِهَا هُنَاکَ، إِنّ الحَارِسَ سَـــيمَهّدُ لَنَا كُلّ شَيءٍ كَمَا يفْعَلُ دَائِماً، إِنّ الّذِى سَيتَوَلّى البَيعَ لَيسَ أَنَا، وَلَا أَنْتَ، إِنّهُ المُوَظّفُ الأَمِيرْكِى الأَشْقَرُ. الأَمِيرْكِى يبِيعُ، وَأَنَا أَقْبِضُ، وَالحَارِسُ يقْبِضُ، وَأَنْتَ تَقْبِضُ، وَكُلُّهُ بِالِاتّفَاقِ، فَمَا رَأيکَ؟» (كنفانى، ٢٠١٣م: ١٢)

بالنظـــر إلى أقـــوال أبى سمير وأفعاله، التى تشـــرح لأبى العبد كيفية الســـرقة من المســـتودع وتُبرر هذا الفعل، يمكن اعتبار هذا الجانب من شـــخصيته انعكاساً لوظيفة "الهُوَ". فالـ"هو" «يهرب من الوازع الدينى، وهو فاسد، عنيد، أنانى، ويسعى إلى تحقيق لذاته بأســـرع وقت، ولا يبالى بالمســـتقبل.» (هريدى، ٢٠١١م: ٩٥) يبدو أن "هو" أبى

سمير، بوصفه الجزء الغريزى واللاواعى، يستغل تحريض أبى العبد على السرقة كوسيلة لتحقيق المنفعة واكتساب المال، متجاهلاً فى سبيل ذلک العواقب الأخلاقية والقانونية. وهذا يشكل نوعاً من المقاومة الأنانية فى مواجهة الحرمان، كما يظهر هيمنة هذا الجزء من بنيته الشخصية على الاعتبارات الواقعية.

يعد عجز أبى العبد عن تلبية الحاجات الأساسية، بالإضافة إلى جوع ومعاناة طفله وزوجته، التهديد الرئيسى لأمنه النفسى. ويتجلى هذا الانعدام للأمن فى صراعاته النفسية التى تُظهر بوضوح ثبات مكونات شخصيته الداخلية:

«وَلَكِنّهُ فِى الوَقْتِ ذَاتِهِ رَاقَهُ أنْ يعُودَ يوْماً إلَى خَيمَتِهِ وَفِى يدِهِ قَمِيصٌ جَدِيدٌ لِعبدالرحمن، وَأغْرَاضٌ صَغِيرَةٌ لِأُمّ العَبْدِ بَعْدَ هَذَا الحِرْمَانِ الطّوِيلِ، كَمْ سَتَكُونُ ابْتِسَامَتُهُمَا جَمِيلَتَين، إنّ ابْتِسَامَةَ عبدالرحمن، لِوَحْدِهَا، تَسْتَحِقُّ المُغَامَرَةَ لَا شَكّ... و ... لَوْ نَجَحَ فَسَيبْدُو عبدالرحمن إنْسَاناً جَدِيداً، وَسَيَقْتَلِعُ مِنْ عُيُونِ زَوْجِهِ ذَلِکَ السُّؤَالَ المُخِيفَ، لَوْ نَجَحَ، فَسَتَنْتَهِى مَأسَاةُ الخَنْدَقِ فِى كُلّ لَيلَةٍ مُمْطِرَةٍ وَسَيعِيشُ حَيثُ لَا يسْتَطِيعُ أنْ يتَصَوّرَ الآنَ الوصول.» (كنفانى، ٢٠١٣م: ١٢)

تُعد الظروف الأسرية المضطربة المُحرک الأساسى لـ"الهُوَ" فى ذات أبى العبد. حيث ينشغل هذا الجزء من ذهنه بتحقيق اللذة والرضا من خلال إسعاد زوجته وابنه بشراء المستلزمات الضرورية لهما. وسعياً لمقاومة الحرمان الطويل وتحقيق أهدافه، يجنح إلى طريق سريع، وهنا قد يعزّز اقتراح أبى سمير بالسرقة هذه الوسوسة. إلا أن "الأنا"، باعتبارها الحصن الرئيسى للاستقرار والمقاومة فى أبى العبد، تُولد أفكاراً تتعارض مع هذه الرغبات:

«وَلَكِنّهُ لَوْ فَشِلَ... أى مَصِيرٍ أسْوَدَ ينْتَظِرُ أُمّ العَبْدِ وَوَلَدَهَا يوْمَهَا سَيحْمِلُ عَبْدُالرّحْمَنِ صُنْدُوقَ مَسْحِ الأحْذِيةِ لِيتَكَوّرَ فِى الشّارِعِ هَازّاً رَأسَهُ الصّغِيرَ فَوْقَ الأحْذِيةِ الأنِيقَةِ،يا لِلْمَصِيرِ الأسْوَدِ.» (المصدر نفسه: ١٢)

تسعى "الأنا" فى أبى العبد إلى إحداث توازن بين رغبات "الهُوَ" القائمة على مبدأ اللذة، وقيود الواقع، بالإضافة إلى قيم "الأنا العليا". ورغم ضغط حاجات الأسرة ووساوس أبى سمير، فإن "الأنا" تجعله يأخذ العواقب المحتملة للسرقة فى الاعتبار. تُقدم

"الأنا" صورة واضحة لمستقبل طفله المتمثل فى تلميع أحذية الآخرين ومصيره المظلم فى حال فشلت خطة السرقة، وهو ما يمكن اعتباره استراتيجية مقاومة ذهنية. فى الحقيقة، تُشـــير هذه التصورات إلى ســـعى "الأنا" لفهم الواقع والمقاومة فى مواجهة اندفاعات "الـــذات". وبما أن "الأنا" «هى الجزء الوحيد مـــن العقل الذى يتصل بالعالم الخارجى، وتضطلع بدور صانع القرار أو الوكيل التنفيذى للشخصية.» (فيست وآخرون، ٢٠٢٢م: ٤٥)، فإن "الأنا" تنتصر فى النهاية، مع الأخذ فى الاعتبار الأحداث الجارية والواقع:

«وَخَطَرَ لَهُ أنّ ذَلِـــكَ الأَميرْكِى كَانَ يبيعُ الطّحينَ فِى الوَقْـــتِ الّذى كَانَ يقُولُ فِيهِ لِرِجَالِ المُخَيم وَلِنِسَائِهِ إنّ تَوْزِيعَ الإعَاشَةِ سَيتَأَجّلُ إلَى نِهَايةِ الأيام العَشْرَةِ الأُولَى مِنَ الشّهْرِ، وَأَحَسّ بِنِقْمَةٍ طَاغِيةٍ. لَوْ يدْرِ كَيْفَ رَفَعَ الرّفْشَ إلَى مَا فَوْقَ رَأسِهِ وَكَيفَ هَوَى بِهِ بِعُنْفٍ رَهِيبٍ عَلَى رَأسِ أبِى سَمِيرٍ.» (كنفانى، ٢٠١٣م: ١٤-١٥)

عندما يتأمل أبو العبد حرمان نفســـه وأسرته وسكان المخيم الآخرين، الناجم عن أفعال الموظف الأمريكـــى الظالمة المتمثلة فى بيع الدقيق وتأخير توزيعه، ينتابه غضب عارم. ويســـتغل لا شعورياً آلية الدفاع المســـماة الإزاحة[1]، التى ينقل الفرد من خلالها مشاعره غير المناسبة من موضوع معين إلى آخر، أو من شخص معين إلى شخص آخر أكثـــر تقبلاً وأقل خطورة. (هريدى، ٢٠١١م: ٩٩) يبـــدو أن أبا العبد يفرّغ كل الغضب الـــذى كان يضمره تجاه الموظف الأمريكى بقتـــل أبى سمير، الذى يحتمل أن يكون أقل خطورة عليه من الموظف الأمريكى. ويشـــير هذا الغضب إلى مقاومته الأخلاقية للظلم والاستغلال، ويمكن أن يكون قتل أبى سمير مؤشراً على استخدامه لآلية الإزاحة.

حاجات الحب والانتماء

عندما تُشبع الحاجات الفســـيولوجية وحاجات الأمان إلى حدٍ ما، تُصبح الحاجة إلى الانتماء والحب محفزاتٍ أساسيةً للســـلوك. لذلك، «يصبح لدى الفرد ميلٌ شديدٌ لإقامة علاقاتٍ حميمةٍ مع الآخرين، ويعانى من ألمٍ شـــديدٍ وشعورٍ قاسٍ بالوحدة نتيجة فقدان الأصدقاء أو الزوج أو الأبناء.» (الســـيد عبدالرحمن، ١٩٩٨م: ٤٣٧) كما يرى

1. Displacement Defense Mechanism

ماســـلو أن الترابط العاطفي والعلاقات الأســـرية، والانتماء إلى المجموعات العائلية والصداقـــات ومجموعات العمل، هي من أهم مظاهر الحاجـــات الاجتماعية في هذا المستوى. (ماســـلو، ١٩٩٣م ألف: ٩) ويمكن القول إن العلاقات الأسرية، نظراً لطبيعتها الأساسية والأعمق والأكثر استقراراً في الغالب، تلعب دوراً محورياً في هذا المستوى.

العلاقات الأسرية

تؤثر الحاجات الفســـيولوجية وحاجات الأمان بشكلٍ كبيرٍ على جودة العلاقات البينية، وخاصةً العلاقات الأسرية. يعتقد ماســـلو أن «الجنة المأمولة لشخصٍ يصارع الجوع الشديد والطويل، ستكون على الأرجح مجرد مكانٍ يتوفر فيه الطعام بوفرة. وقد يعتبر الحب والانتماء الاجتماعي والتقدير والفلسفة مظاهر لا قيمة لها، لأنها لا تستطيع إشباع بطنه ولا تُقدم له أي فائدة.» (ماسلو، ١٩٩٣م ب: ٧٢)

في القصة المذكورة أيضاً، أثرت ظروف الحياة القاسية على الحاجات الاجتماعية، وخاصةً العلاقات الأســـرية. في الواقـــع، إن هم أبي عبد الرئيـــس لتلبية الحاجات الأساسية قد قلل من الوقت والاهتمام الذي يخصصه لتقوية الروابط العاطفية ومقاومة اهتزاز الأســـرة. لكن في هذا السياق، فاقمت طريقة تعامل أم عبد مع المشكلات هذا التذبذب في العلاقات:

«وَلَكِنَّهُ يَخَافُ أَنْ يدْخُلَ هَذِهِ الخَيمَةَ، إِنَّ فِي مُحَاجِرِ زَوْجِهِ سُؤَالاً رَّهِيباً مَّا زَالَ يَقْرَعُ فِيهِمَا مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ، لَا، إِنَّ البَرْدَ أَقَلُّ قَسْوَةً مِّنَ السُّؤَالِ الرَّهِيبِ. سَتَقُولُ لَهُ إِذَا مَا دَخَلَ وَهِي تَغْرِسُ كَفَّيهَا فِي العَجِينِ، وَتَغْرِسُ عَينَيهَا فِي عُيونِهِ: هَلْ وَجَدْتَ عَمَلاً؟ مَاذَا سَنَأْكُلُ إِذَنْ؟ كَيْفَ اسْـــتَطَاعَ (أَبُو فُلَانٍ) أَنْ يشْـــتَغِلَ هُنَا، وَكَيفَ اسْتَطَاعَ (أَبُو عِلَّتَانَ) أَنْ يشْتَغِلَ هُنَاكَ؟ وَسَتَهُزُّ رَأسَهَا بِصَمْتٍ أَبْلَغَ مِنْ أَلْفِ أَلْفِ عِتَابٍ... مَاذَا عِنْدَهُ اللَّيلَةَ لِيقُولَ لَهَا سِوَى مَا يقُولُهُ فِي كُلِّ لَيلَةٍ.» (كنفاني، ٢٠١٣م: ٨)

يفضل أبو عبد البرد القارس على دفء الخيمة بسبب سلوك زوجته المُعاتب الذي يلومه على نقص الطعام والعمل، ومقارنتها المســـتمرة له برجال المخيم الآخرين. لكن فـــي المقابل، كان بإمكان أبي عبد أن يقاوم تفكك العلاقات العاطفية من خلال الحوار

البناء، وشـــرح القيود، ومحاولة إثارة تعاطف زوجته. فى المقابل، بدلاً من تبنى أم عبد لنهج المقاومة فى شـــكل التعاطف والتفاهم المتبادل، حوّلت البيئة الأسرية، التى ينبغى أن تكون المصدر الرئيسى للدعم العاطفى، إلى مصدر ضغطٍ من خلال أسئلتها المتكررة، ومعاتبتهـــا المتواصلة، ومقارناتها المدمرة، وفى النهاية صمتها الثقيل. إن أفعال أم عبد، والمناقشـــات المُنهكة، وغياب التواصل الفعال، وعدم وجود جهد مشترك للتغلب على المشـــكلات، لم تُضف إلى مشـــاعر عدم الانتماء والنبذ لدى أبى عبد – وهو ما يؤكده خوفه من دخول الخيمة – فحسب، بل أدت أيضاً إلى الانفصال والوحدة لكلا الطرفين، وهو ما لا يثمر إلا برودة وتضاؤل العلاقات الأسرية.

تُخلق مثل هذه الظروف تحدياتٍ أعمق للأطفال نظراً لهشاشتهم النفسية الأكبر: «ثُمَّ سَتُشِـــيرُ إِلَى عبدالرحمن المُكَوِّرِ فِى زَاوِيةِ الخَيمَةِ كَالْقِطِّ المَبْلُولِ.» (المصدر نفســـه: ٨) يظهر هذا الوصف أن عبدالرحمن مُتكوّر فى زاوية الخيمة كقطٍ مبلول. ويمكن اســـتنتاج أن غياب الطعام فى هذه الظروف له قيمة نفسية بالنسبة لعبدالرحمن؛ لأن ماسلو يعتقد:

«الطفل الذى يحرم من الحصول على مثلجاتٍ قد لا يفقد إشـــباعاً حسياً فحسب، بل قد يشـــعر بالحرمان من عاطفة أمه؛ وذلك لأنها رفضت شراء المثلجات له. فى نظر الطفل، المثلجات لا تحمل قيمة جوهرية فحســـب، بل يمكن أن تحمل قيماً نفسية أيضاً.» (ماســـلو، ١٩٩٣م ب: ١٦٠) بالنظر إلى مثال ماسلو الذى يشير إلى أن شراء المثلجات يمكن أن يفســـر فى نظر الطفـــل كرمزٍ للمحبة والاهتمام، ورفض شـــرائها كإهمالٍ من الوالدين، حتى لو كان ســـبب الرفض قيوداً مالية، أو الحفاظ على صحة الأســـنان، أو أسباباً منطقية أخرى لا يفهمها الطفل.

فى حالة عبدالرحمن، الظروف أصعب وأكثر تعقيداً بكثير؛ لأنه يواجه حرماناً متعدد الأوجه يهدد بقاءه. فى مثل هذه الحالـــة، يمكن أن تُلحق معاتبات أم عبد ضرراً كبيراً بعبدالرحمن؛ لأنه قد يفســـر غياب الطعام ليس بســـبب الحرمان العام، بل بســـبب قلة اهتمام والده به، وقد يرى مُشـــاجرة والدته تأكيداً لهذا التصور. فى هذا الوضع، يبدو أن عبدالرحمن قد لجأ إلى الســـلوك التعبيرى[1] الذى طرحه أبراهام ماسلو. «السلوك

1. Expressive behavior

التعبيرى عادةً ما يكون غريزياً وتلقائياً وتُشـــكله القوى الداخلية للفرد. وتشمل أمثلة هذا الســـلوک التحدب، التصرف بحماقة، الاســـترخاء، والتعبير عن الفرح.» (فيست وآخرون، ٢٠٢٢م: ٣٩٧) فى الواقع، يمكن أن يكون تجمع عبدالرحمن فى زاوية الخيمة محاولةً لا واعية وســـلوكاً تعبيرياً للتعبير عن الانزعاج، واللجوء، وكذلک جذب انتباه والديه لإثارة تعاطفهما ومحبتهما. إن تشـــبيهه بقطٍ مبلول يظهر بوضوح حالته العاطفية الهشـــة، وضعفه، وعجزه، وحاجته إلى الدعم والدفء العاطفى. يبدو أنه فى مثل هذه الظروف، كان بإمكان أبى عبد وزوجته أن يعبرا عن الحب اللفظى أو الجسدى البسيط، وهو بحد ذاته نوعٌ من المقاومة ضد التفكک العاطفى للطفل، وأن يرسيا شعور عبدالرحمن بالانتماء والاستقرار النفسى.

حاجات التقدير

تساهم عوامل مثل الشهرة، والمستوى التعليمى، والمكانة الاجتماعية، والثروة، فى اكتســـاب الأفراد للاحترام. وقد ذكر ماسلو أن «حاجات هذه المرحلة تشمل الإنجاز، والكفاءة، والاستقلالية والحرية، والمكانة الاجتماعية، والحاجة إلى الاحترام.» (ماسلو، ١٩٩٣م ألـــف: ٨٠) يبدو أن عنصر الاســـتقلالية والحرية يحمل علاقة معقدة ومتناقضة أحياناً مع العناصر الأخرى فى هذا المســـتوى. على سبيل المثال، قد يتطلب الحصول على مكانة اجتماعية عالية قبول قيود على الحرية الشخصية ضمن الأطر الاجتماعية والوظيفية.

الاستقلالية والحرية

إن بيئة المقاومة وما يترتب عليها من عدم إشباع الحاجات الدنيا تؤدى إلى إغفال الفرد لإخفاق الحاجات العليا. فى هذا الصدد، يؤكد ماســـلو أن «الرجل الذى يعيش على الكفاف لن يقلق كثيراً بشأن أمور الحياة الرفيعة، كالحرية، وحق التصويت، وسمعة مدينته، والاحترام؛ فإن اهتمامه ســـينصبّ قبل كل شـــىء على الحاجات الأساسية.» (ماسلو، ١٩٩٣م ب: ١١٥) إن الحياة فى الظروف الصعبة لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين تمثل مثالاً صارخاً على وضع يتناقض بشدة مع حاجات الاحترام، وخاصة الاستقلالية

والحرية. ومع ذلک، وكما يتضح من الحوار بين أبى سمير وأبى العبد فى القصة المذكورة، فإن هذه القيود الخارجية لا تؤدى بالضرورة إلى سلب كامل لحرية الفرد فى التفكير واختيار الأفعال: «إِسْمَعْ إِنّ هذَا الأَمِيرِكِى صَدِيقِى، وَهُوَ إِنسَانٌ يحِبُّ العَمَلَ المُنَظّمَ، إِنّهُ يطْلُبُ مِنّى دَائِماً أَنْ أَضَعَ الوَقْتَ بِالمُقَدّمَةِ. وَهُوَ لَا يحِبُّ التّأخِيرَ فِى المَوَاعِيدِ... عَلَينَا أَنْ نَبْدَأَ الآنَ. أَسْرِعْ.» (كنفانى، ٢٠١٣م: ١٤) و «لَا، بَلْ أَنْتَ المِسْكِينُ.» (المصدر نفسه: ١٢) يتضح من النص أن أبا سمير يقر بأن الرجل الأمريكى صديقه، وأنه يفضل العمل المنظم وفى المواعيد المحددة، كما يصف أبا العبد بأنه "مسكين".

يبدو أن أبا سمير يرى فى السرقة وسيلة للهروب من القيود الشاقة للمخيم، ورغم هذه الظروف الصعبة، فإنه يتمتع بنوع من الحرية فى اختيار هذا الفعل وتبنى موقف انتهازى. يتوافق هذا إلى حد ما مع وجهة نظر فيكتور فرانكل[1] الذى يعتقد أن «الإنسان مخلوق حر، وحتى الظروف البيئية لا يمكن أن تسلبه هذا الحق فى الاختيار.» (شولتز، ١٩٩٠م ألف: ١٥٦) فى البيئات التى يسود فيها الشعور بالعجز والضعف، قد تؤدى محاولة تعزيز الثقة بالنفس الهشة إلى سلوكيات معينة. من هنا، يمكن استنتاج أن تأكيد أبى سمير على صداقته بشخص أمريكى ذى نفوذ، وتقديمه صورة منظمة ودقيقة عن نفسه، و وصف أبى العبد بالمسكين، يمثل محاولة لإظهار القوة وإصلاح تقدير الذات المتضرر، وكذلک مقاومة لقبول دور الضحية. ومع ذلک، فإن رد فعل أبى العبد يشير إلى أن المقاومة فى ظروف مماثلة يمكن أن تتخذ أشكالاً مختلفة، ويمكن للأفراد أيضاً أن يتبنوا مواقف مختلفة: «وَشَعَرَ أَبُو العَبْدِ أَنّ القَضِيةَ أَشَدُّ تَعْقِيداً مِنْ سَرِقَةِ كِيسٍ أَوْ كِيسَينِ أَوْ عَشَرَةٍ وَرَاوَدَهُ شُعُورٌ لَزِجٌ بِالقَرَفِ مِنَ المُعَامَلَةِ مَعَ هَذَا الإِنْسَانِ.» (كنفانى، ٢٠١٣م: ١٢) و «فِى كُلِّ خِيامِ قَرِيةِ النّازِحِينَ كَانَتِ العُيونُ المُتَلَهّفَةُ تَقَعُ فِى خَيبَةِ الأَمَلِ ذَاتِهَا، كَانَ عَلَى كُلِّ طِفْلٍ فِى المُخَيمِ أَنْ ينْتَظِرَ عَشَرَةَ أيامٍ لِيأكُلَ خُبْزاً.» (المصدر نفسه: ١٤) تجدر الإشارة إلى أنه عندما أدرک أبو العبد أن الصفقة أكبر من مجرد سرقة بضعة أكياس من الدقيق، شعر باشمئزاز من التعامل مع هذا الرجل، كما تذكر أن جميع أطفال المخيم كانوا ينتظرون عشرة أيام للحصول على الخبز.

1. Viktor Frankle

علـــى الرغم من أن الظروف التى يعيشـــها أبو العبد وعائلتـــه تدل على نقص فى الإحساس بالحرية وتهدد بشـــدة تقدير أبى العبد لذاته وتقلل من قيمته الذاتية، إذ أن «عدم إشـــباع هذه الحاجة يؤدى إلى مشاعر مثل الدونية، والعجز، واليأس.» (ماسلو، ١٩٩٣م ب: ٨٢)، إلا أنـــه، مثل أبى سمير، يتمتع بحرية الاختيار وتحديد مواقفه وأفعاله. فـــى الواقع، على الرغم من الضغوط الخارجية التى تدفعه نحو الســـرقة، فإن شـــعور الاشمئـــزاز الذى يكنه أبو العبد تجاه التعامل مع الرجل الأمريكى يدل على حريته فى الاختيار، ومقاومته للضغوط الخارجية، والتزامه بقيمه الأخلاقية الداخلية. يمكن القول إن حديث أبى العبد عن خيبة أمل جميع ســـكان المخيم وانتظار الأطفال للخبز، يشير إلى اختلاف وجهة نظره عن أبى سمير. فبينما يواجه الاثنان ظروفًا متشابهة، يفضل أبو العبد المصالح الجماعية والقيم الأخلاقية على المصلحة الشـــخصية. فى المقابل، يفضل أبـــو سمير مصلحته الخاصة على حقوق الآخرين. ورغم أن وصف شـــخصية أبى سمير بـ"المضادة للمجتمع[1]" يتطلـــب معلومات إضافية، إلا أنه نظراً لوجود علامات من هذا الاضطـــراب، مثل تجاهل حقوق الآخرين لتحقيق مصالح شـــخصية (غنجى، ٢٠١٣م: ٢٣٢)، يبدو أن أبا سمير يمتلک شـــخصية مضادة للمجتمـــع، أو على الأقل لديه قابلية للإصابة بهذا الاضطراب.

حاجة تحقيق الذات

يعدّ تحقيق الذات أسمى مستويات الحاجات الإنسانية، ويتحقق عندما يتمكّن الفرد من إبراز كامل إمكاناته الكامنة والوصول بها إلى أقصى مســـتوياتها. لكن، حتى مع إشـــباع حاجات التقدير، لا يصل الأفراد بالضرورة إلـــى مرحلة تحقيق الذات. يؤمن ماسلو بأن الذين يبلغون هذه المرحلة هم فقط من يعطون أهمية قصوى للحقائق الأبدية[2] التى أسماها "قيم الكينونة[3]" وبخلاف ذلک، حتى لو تم تلبية الحاجات الأساسية للفرد، فلن يحدث تحقيق الذات. تُعتبر هذه القيم الوجودية مؤشرات على الصحة النفسية، وهى

1. Antisocial personality
2. Eternal verities
3. B-values

تتناقض مع "حاجات النقص" التى تُحفّز الأفراد غير المحققين لذواتهم. وقد حدّد ماسلو أربع عشرة قيمة من قيم الكينونة، وأسماها "الحاجات العليا[1]" ليشير إلى كونها مستوى أعلى من الحاجات. وهو يعتقد أن الحرمان من هذه القيم يؤدى إلى "الميتاباثولوجيا[2]" أو غياب فلسفة حياة ذات معنى. (فيست وآخرون، ٢٠٢٢م: ٣٩٣-٤٠٣) وتُعرض قيم الأفراد المحققين لذواتهم فى الشكل (٢):

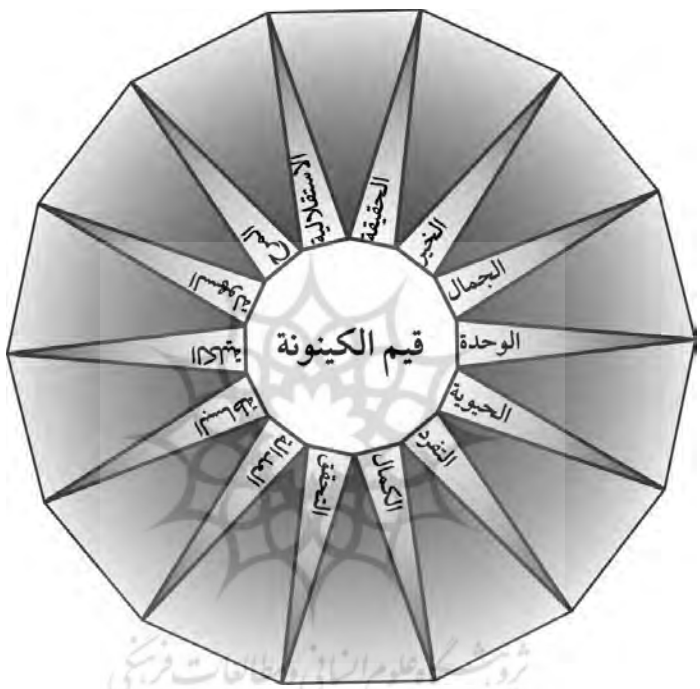

صورة (٢). قيم "الكينونة" لماسلو: جوهرة بخصائص متعددة (المصدر: فيست وفيست، ٢٠٠٥م: ٦٠٣)

فى هذا المجال، ميز أبراهام ماســـلو الأفراد المحققين لذواتهم عن غيرهم من خلال تقـــديم مجموعة من الخصائص لتوضيح مفهوم تحقيق الذات. وتشـــمل هذه الخصائص: إدراك أفضـــل للواقع والتعامل معه، مقاومة التماهى الثقافى، قبول الذات والآخرين،

1. Meta needs
2. Meta pathology

العفوية والبساطة والطبيعية، الحاجة إلى الخلوة، الإبداع والابتكار، التمييز بين الوسيلة والغاية، والتوجه نحو حل المشكلات. (ماسلو، ١٩٩٣م ب: ٢١٦-٢٣٨)

عند تحليل القصة، يتضح للوهلة الأولى أن لا توجد أى سمات للأفراد المحققين لذواتهم فى شخصية أبى عبد. ومع ذلک، فى خضم الأزمة، تظهر إشارات إلى اهتمامه ببعض "قيم الكينونة". يتجلى هذا الاهتمام فى سؤاله المفاجئ لأبى سمير عن مدة تعامله مع الحارس والموظف الأمريكى: «مُنذُ مَتَى وَأَنتَ تَتَعَامَلُ مَعَ هَذَا الحَارِسِ وَذَلِکَ المُوَظّفِ؟.» (كنفانى، ٢٠١٣م: ١٣) يطرح سؤاله فى أوج اضطرابه الذهنى، ويمكن اعتباره شرارة فضول ورغبة فى فهم الحقيقة كبعد من هذه القيم. هذا الفضول، بحد ذاته، هو نوع من الثبات المعرفى فى مواجهة الجهل المفروض ورغبة فى المعرفة. كما أن رد فعله العنيف بعد اكتشاف سبب نقص الدقيق، والذى أدى إلى قتل أبى سمير، على الرغم من أنه نابع من شعور بالخيانة وتهديد البقاء، يمكن أن يكون تعبيراً عن سعيه العميق للعدالة؛ وهى قيمة أخرى من قيم الباء التى تفعّلت فى ذاته مع إدراكه لحقيقة الأمر. هذه اللحظات، وإن كانت قصيرة وفى قلب موقف أزموى، يمكن اعتبارها إمكانية لاهتمامه بالقيم الأسمى. لكن، على الرغم من وجود إشارات ضئيلة فى شخصية أبى عبد، فإن انغماسه فى غمار المشكلات وتركيزه الحتمى على تلبية الحاجات الأساسية، حال دون توفير بيئة مناسبة لتوجه أبى عبد نحو تحقيق ذاته.

كما يرى ماسلو، «يرتبط تحقيق الذات ارتباطًا وثيقًا ببيئة حياة الأفراد.» (شولتز، ١٩٩٠م ألف: ٩٢) فبيئة المخيم، المليئة بالحرمان والنزوح وانعدام الأمن، حوّلت كل انتباه وطاقة أبى عبد نحو البقاء وتأمين الحاجات الأساسية. ويعترف ماسلو بأن «أقوى دافع للفرد الذى فقد كل ممتلكاته فى الحياة سيكون على الأرجح الحاجات الفسيولوجية، لا شىء آخر.» (ماسلو، ١٩٩٣م ب: ٧١) فى القصة المذكورة أيضاً، تنحصر مخاوف أبى عبد بوضوح فى المستويين الأولين من هرم الحاجات: «كَمْ يودُّ لَوْ أَنّهُ يَنْتَشِلُ عبدالرحمن مِنْ هُزَالِهِ وَخَوْفِهِ.» (كنفانى، ٢٠١٣م: ١٣) و«كَانَ لَا يزَالُ رَاغِباً فِى أَنْ يرَاهُ يبْتَسِمُ لِقَمِيصٍ جَدِيدٍ.» (المصدر نفسه: ١٥)

يرغب أبو عبد فى إنقاذ ابنه من الخوف، وحتى اللحظة الأخيرة، يتمنى أن يرى

ابتسامة ابنه بسبب حصوله على قميص جديد. فى بيئة المخيم القمعية، حيث يخيم الفشل والحرمان، وتتحول رغبات بسيطة مثل امتلاك قميص جديد وتأمين الأمان إلى أهداف كبيرة وبعيدة المنال، يتأجل الاهتمام بالحاجات والرغبات الأسمى فى هرم ماسلو وينسى، وذلک لأن المساحة اللازمة لظهور وتنمية إمكانات تحقيق الذات تُسلب من الأفراد. فى مثل هذه الظروف، لا يتجلى صمود أبى عبد فى سبيل تحقيق الذات بالمعنى الذى قصده ماسلو، بل يتجلى فى سبيل الحفاظ على الحد الأدنى من الإنسانية والبقاء.

تحليل عدم تحقيق الذات لشخصية أبو عبد

فى خطاب المقاومة وأجوائها، وبسبب الظروف السائدة، غالباً ما يتركز اهتمام الأفراد على المعارک الخارجية والأهداف الجماعية الكبرى، بدلاً من التركيز على النمو والتطور الفردى (تحقيق الذات). فى مثل هذا السياق، تتقدم الذات الجماعية[1] التى تشمل الهوية المشتركة، والانتماءات الجماعية، والقيم الجمعية، على الذات الفردية[2] التى تضم الرغبات والتطلعات والإمكانات الشخصية. بعبارة أخرى، توضع الفردية فى خدمة الجماعة؛ ولذلک، تتأجل رغبات الفرد وحتى أحلامه أو تضحى بها فى سبيل تحقيق الأهداف التى تؤكد عليها المقاومة. بناءً عليه، يمكن القول إن أجواء المقاومة، كعامل خارجى، قد تكون عائقاً أساسياً أمام معرفة الذات وتحقيق الحاجات الإنسانية السامية. وفى هذا السياق، يمكن اعتبار مقاومة الفرد الشخصية أيضاً عائقاً داخلياً يحول دون تحقيقه لذاته.

شخصية أبو عبد، كرمز للشعب الفلسطينى المظلوم والمتضرر من الحرب، تواجه مقاومة خارجية (الظروف التى يفرضها الكيان الصهيونى) ومقاومة شخصية (سعى الفرد لرفع القيود المفروضة). إن عجز أبى عبد عن تأمين حاجاته الفسيولوجية والأمنية، وقلة اهتمامه بالحاجات العاطفية، ونسيانه للحاجات التى تقع فى قمة هرم أبراهام ماسلو، هو نتيجة للظروف التى هيأها له المجتمع وأجواء المقاومة. فوفقاً لمعتقد ماسلو: «السبب

1. Collective self
2. Individual self

الرئيسى فى أن عدداً قليلاً من الأفراد يستطيعون تحقيق إمكاناتهم الكامنة هو المجتمع الذى لا يستطيع توفير الإمكانيات اللازمة فى هذا المجال للأفراد.» (راس، ٢٠٠٣م: ١٣٣)

الظروف التى وُجد فيها أبو عبد، لا باختياره بل بالإجبار، فرضت عليه أثمان باهظة؛ تكاليف أبعدته عن مسار تحقيقه لذاته ووضعت خطاً أحمر على إمكانياته فى تحقيقها. لذلك، لا يمكن عزو عدم تحقيق أبى عبد لذاته إلى قصور فردى فيه فحسب، بل إن عدم تحقيق الذات هذا هو ثمرة هياكل اجتماعية وسياسية معيبة يمكن أن تلحق بالمجتمع أضراراً لا يمكن إصلاحها على المدى الطويل، لأن تدمير القدرات الفردية يعنى تدمير رأس المال البشرى وصناع المستقبل المبتكرين الذين يدفعون عجلة تقدم المجتمع على مختلف المستويات.

النتيجة

أظهرت نتائج هذا البحث ما يلى:

فيما يتعلق بالسؤال الأول، يمكن القول إن مقاومة أبى عبد فى المواقف المختلفة من القصة لا تمثل تمرداً نشطاً ضد بنية النظام السائد. لقد لجأ بشكل أساسى إلى المقاومة السلبية والداخلية لمواجهة الدوافع الخارجية والضغوط البيئية. ومع ذلك، لا تتغير طبيعة مقاومته وتتخذ طابعاً عنيفاً إلا عندما تشتعل شرارات القيم النبيلة مثل الحقيقة والعدالة فى داخله. عند هذه النقطة، تتخذ مقاومته ضد الاستغلال طابعاً ثورياً، وتتجلّى فى قتل أبى سمير. يعبر هذا التحول عن أن تغيير نمط مقاومة أبى عبد يخدم المصلحة الجماعية.

أما بخصوص السؤال الثانى، فيمكن القول إن مقاومة شخصية أبى عبد لعدم تحقق أى مستوى من مستويات هرم ماسلو للحاجات قد أثرت على سلوكياته وعلاقاته وقراراته. فعلى مستوى السلوكيات، أدت مقاومة أبى عبد لعدم تلبية حاجات النقص، خاصة الحاجات الفسيولوجية والأمان، بهدف قمع حقائق الحياة غير السارة، إلى استخدام آليات دفاعية مثل التجنب والكبت. كما أن مقاومته الأخلاقية فى مواجهة

الظلم أدت إلى استخدام آلية الدفاع عن الإزاحة، وخير مثال على ذلک قتل أبی سمير.

ولكن على مستوى العلاقات، فإن انشغال أبی عبد بالطعام والعمل منعه من مقاومة تفـــكک العلاقات من خلال الحـــوار البناء، ولهذا، أدى عـــدم المقاومة هذا إلى فتور العلاقات الأسرية وتضاؤلها. يمكن ملاحظة التأثير الأكبر لمقاومة أبی عبد على مستوى القرارات، فبسبب الضغوط والمحفزات الخارجية، ينهض كل جزء من شخصيته كمقاومة استراتيجية ذهنية، وفی النهاية، يؤدی ثبات جزء من ذاته إلى رفضه للسرقة كجزء من دوافع الـ"هو".

المصادر والمراجع

بصيری، محمد صادق ونسرين فلاح. (۲۰۱۴م). «مبانی نظری ادبيات مقاومت در آثار غسّان كنفانی». نشريه ادبيات پايداری. السنة الـ٦. العدد ١٠. صص ٩٠_ ٦٥

ترابی، ضياءالدين. (۲۰۱۱م). آشنايی با ادبيات مقاومت جهان. طهران: انتشارات پژوهشگاه علوم و معارف دفاع مقدس.

الجيوســـی، ســـلمی الخضراء. (۱۹۹۷م). موسوعة الأدب الفلســـطينی المعاصر. انطولوجيا. بيروت: منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

حســـاويان، ميلاد. (۲۰۲۲م). ترجمه و شرح رمان "القميص المسروق" از عربی به فارسی اثر غسّان كنفانی. رسالة ماجستير. رفسنجان: جامعة ولیعصر.

خضيری نيسی، هنا. (۲۰۲۳م). جلوه‌های ادبيات پايداری در مجموعه داستان كوتاه الرجال والبنادق اثر غسّان كنفانی. رسالة ماجستير. أهواز: جامعة الشهيد چمران.

راس، آلن اُ. (۲۰۰۳م). روان‌شناسی شخصيت (نظريه‌ها و فرآيندها). ترجمه سياوش جمال‌فر. طهران: انتشارات روان.

زينی‌وند، تورج و سميه صولتی. (۲۰۱۷م). «نشانه‌شناسی اجتماعی داستان كوتاه "القميص المسروق" كنفانی با تكيه بر ســـازه‌های گفتمانی هليدی». مجله زبان و ادبيات عربی. الســـنة الـ٩. العدد ١٦. صص ١٦٠_ ١٢٧

سيد عبد الرحمن، محمد. (۱۹۹۸م). نظريات الشخصية. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

شولتز، دوان. (۱۹۹۰م الف). روان‌شناسی كمال: الگوهای شخصيت سالم. ترجمه گيتی خوش‌دل. ط ٥. طهران: انتشارات نو.

شـــولتز، دوان. (۱۹۹۰م ب). نظريه‌های شـــخصيت. ترجمه يوســـف كريمی وزملاؤه. ط ٤. طهران: انتشارات ارسباران.

شولتز، دوان. (٢٠٠٦م). روان‌شناسی کمال: الگوهای شخصیت سالم. ترجمه گیتی خوش‌دل. ط ١٣. طهران: انتشارات پیکان.

صالحی، بیمان وکلثوم باقری. (٢٠٢٢م). «تحلیل شـــخصیت اصلی رمان ایام معه براســـاس نظریه خودشکوفایی آبراهام مزلو». مجله ادب عربی. السنة الـ١٣. العدد الـ٤. صص ١٠٧_ ٨٧

عموری، نعیم وســـیّد حسن نجاتی. (٢٠١٩م). «تحلیل مؤلفه‌های ادبیات پایداری در رمان رجال فی الشـــمس اثر غسّـــان کنفانی». مجله پژوهش در آموزش زبان و ادبیات عرب. السنة الـ١. العدد ١. صص ٧٧_ ٥٩

غنجی، مهدی. (٢٠١٣م). آسیب‌شناسی روانی براساس DSM-٥. طهران: انتشارات ساوالان.

فرانک، برونو. (١٩٩١م). فرهنگ توصیفی روان‌شناســـی. ترجمه مهشـــید یاسایی و فرزانه طاهری. طهران: انتشارات طرح نو.

فروید، آنا. (٢٠١٨م). خود و مکانیسم‌های دفاع روانی. ترجمه فرزام حبیبی اصفهانی. ط ١. طهران: انتشارات شبگون.

فیست، جس؛ فیســـت، جریجوری جی. (٢٠٠٥م). نظریه‌های شـــخصیت. ترجمه یحیی سیّد محمدی. طهران: انتشارات روان.

فیســـت، جریجوری جی وآخرون. (٢٠٢٢م). نظریه‌های شخصیت. ترجمه یحیی سیّد محمدی. طهران: انتشارات روان.

کارفر، جارلز اس؛ شـــیر، مایکل اف. (٢٠٠٨م). نظریه‌های شـــخصیت. ترجمه احمد رضوانی. ط ٢. مشهد: شرکت به‌نشر.

کنفانی، غسّان. (٢٠١٣م). القمیص المسروق. قبرص: منشورات الرمال.

ماسلو، ابراهام. (١٩٨٨م). روان‌شناسی شخصیت سالم. ترجمه شیوا رویگریان. طهران: انتشارات هدف.

ماسلو، ابراهام. (١٩٩٣م الف). افق‌های والاتر فطرت انسان. ترجمه احمد رضوانی. مشهد: انتشارات آستان قدس رضوی.

ماســـلو، ابراهام. (١٩٩٣م ب). انگیزش و شخصیت. ترجمه احمد رضوانی. ط ٣. مشهد: انتشارات آستان قدس رضوی.

هریـــدی، عادل محمد. (٢٠١١م). نظریات الشـــخصیة. ط ٢. القاهرة: دار إیتراک للطباعة والنشـــر والتوزیع.